نظرة في التحليل النفسي كنظرية وكطريقة علاجية

أ. مليكة ستيتي

أستاذة علم النفس

بالمدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة– الجزائر

لا يمكن أن نتطرق إلى التحليل النفسي دون ذكر صاحب النظرية التحليلية النفسية وهو سجموند فرويد فمن يكون فرويد وما الذي أدى به إلى الاهتمام بالنفس رغم كونه طبيبا جراحا للأعصاب؟

يقول ڤابريال جيبلر (2001) أن سجموند فرويد ولد في مدينة فريبرغ من مقاطعة مورافيا الواقعة في الحدود الحالية لتشيكوسلوفاكيا عام 1856، وقد انتقلت أسرته عام 1860 إلى فيينا حيث درس وأقام القسط الأكبر من حياته.

ولم يكن فرويد في مرحلة الدراسة الثانوية يستشعر ميلا خاصا إلى الطب، وكانت الأمور الإنسانية أقرب إلى اهتمامه من موضوعات العلوم الطبية. وقد قرر لفترة ما، أن يدرس القانون وأن يكرس حياته اللدراسات الإجتماعية، إلا أن نظرية داروين أثارت اهتمامه فقرر دراسة الطب على إثر سماعه بأفكار حول الطبيعة للأستاذ كارل برول قبيل تخرجه من المدرسة الثانوية، لذا التحق بكلية الطب عام 1873. ولم يكن فرويد طالبا لامعا في كلية الطب، ولم يكن

يستوهيه سوى الطب النفسي والفيزيولوجيا حسب ما يؤكده الباحث وود وورك (Wood Worth 1965) الشيء الذي أدى به إلى إهمال بالغ في دروسه بحيث لم يتخرج قبل عام 1881. وفي سنة 1867 كان فرويد قد التحق بمخبر الفيزيولوجية التابع لإرنست برك حسب المرجع ذاته، حيث عهد إليه برك هذا المخبر في عام 1882 منتظرا شغور أول مركز لمساعد من أجل أن يشغله، لكن لسوء مركز فرويد المالي – وهذه نقطة أساسية استغلها نقاد فرويد فيما بعد – الشيء الذي لاحظه بروك، ترك فرويد العمل النظري وهكذا التحق بمساعدة بروك إلى العمل كطبيب متمرن بالمستشفى العام حيث تنقل بين مختلف الأقسام ومن جملتها قسم الأمراض العقلية.

عمل فرويد فترة في مخبر تشريح المخ، وهنا عرض عليه "سبينرت" الذي كان رئيس قسم الأمراض العقلية أن يتفرغ لهذا العمل إلا أن الإعتبارات المالية نفسها جعلت فرويد يتجه إلى دراسة الأمراض العصبية في الوقت الذي بدأ بريق "شاركو" يجذبه فصمم على إتمام دراسته في باريس من خلال منحه دراسة سعى له فيها بروك، كما ذكر فرويد في كتابه "حياتي والتحليل النفسي " (1967) ولم يتصل فرويد "بشاركو" إلا حين طلبه هذا الأخير ليترجم له مقالته من الفرنسية إلى الألمانية.

وهكذا عاد فرويد إلى فينا في خريف 1886 وهو يحمل أفكار عن الهستيريا والتنويم المغناطيسي تم وبعد اتصاله ببرنهايم اكتشف الكبت، تم التحويل في حالة "أنا" المشهورة وهذا بعد اتصاله بروير.

لكن لا تفوتنا الإشارة هنا إلى أن الذي دفع بفرويد إلى التجوال والسفر من بلاد إلى بلاد هو ما ذكره في المرجع السابق عن نفسه حين قال أن كبار الأخصائيين قابلوه بعدم التصديق حين رجوعه من فرنسا وكلامه عن الهستيريا فقابلوه إذن بعدم التصديق وطلبوا منه التماس حالات متشابهة في فيينا الشيء الذي لم يجد إليه سبيلا لرفض رؤساء الأقسام ذلك. أكثر من هذا، فإن الثورة بلغت مبلغا عظيمًا بينه وبين زملائه آن ذاك حيث قالوا أن مسطلح هستيريا أصله "هستيرون" ومعناه "الرحم" فأنى للرجل أن يكون هستيريا (فرويد المرجع السابق) فانصرف فرويد إلى ممارسة عمله كطبيب متسلحا بالتنويم المغناطيسي الذي أقر أنه لم يجد فيه جدوى بالشكل الذي كان ينتظره لذا سافر مرة أخرى إلى نانسي لاستكمال قدرته على التنويم المعناطيسي.

فإذا بعدها اكتشف الكبت ثم التحويل ثم اللاشعور فكان هذا هو جديد فرويد.

لكن هنا أيضا لم يسلم فرويد من النقد والنقد اللاذع أهمه أن فرويد لم يبتكر لفظ "اللاشعور" ولا مفهومه، فوراء هذا المفهوم تاريخ طويل، ومع هذا فنحن لا ننكر أهمية مفهوم اللاشعور كما قدمه فرويد في الدفع بالبحث في علم النفس، ذلك البحث الذي أدى بفرويد شيئا فشيئا إلى إنشاء نظريته الشهيرة في التحليل النفسي، تلك النظرية التي بنيت عليها مدرسة انبثقت منها الطريقة العلاجية التحليلية النفسية، فماذا عن التحليل النفسي؟

إن الدارس لنظرية التحليل النفسي كما أتى بها صاحبها سجموند فرويد. يدرك تماما أن اتجاه فرويد بيولوجيا بمعنى أنه يعتقد اعتقادًا جازما بأن الشخصية قائمة بصورة أساسية على دوافع بيولوجية متأصلة في الجسم بتكوينه

الوراثي الراسخ وبأن هذه الدوافع تمر بشكل لا يتغير، ببعض مراحل النمو خلال السنوات الخمس الأولى من الحياة، ثم تكف عن النمو ولكنها تواصل ممارسة تأثيرها على السلوك خلال الحياة بكاملها.

وفي رسالة جامعية يخلص الباحث أ. حمصي (1981–1982) إلى أن فرويد يرى في الشخص ذرة اجتماعية تطلب التواصل مع الآخرين كمجرد وسيلة لإرواء حاجاتها وأنه يؤمن بوجود عداء أولي يبلغ من القوة درجة تستطيع معها الحاجة الملحة والتهديد المشترك وحدهما أن يجمعا الناس في الحب. كما يقول بوجود داخلي خاص، يبدو خلال الحياة متصلا اتصالا غير مباشرًا بالواقع الخارجي فقط رغم كونه جزئيا، محصلة لعلاقات الشخصية المبكرة. ففرويد يؤمن بحتمية بيولوجية معينة للتكوين الوراثي تحدد الإمكانيات الإنسانية تحديدًا صارما.

كما أن المطلع على نظرية فرويد يعلم أن اتجاهه ليبيدي، بمعنى أن تلك الدوافع البيولوجية التي تعطي للشخصة ديناميكيتها هي دوافع جنسية بصورة تكاد تكون حصرية، وبأن فرويد أطلق مفهوم الليبيدو Libido على الطاقة الجنسية وصاغ فيها نظرية متكاملة في نظره.

هذا باختصار شديد ما يُعرِّف النظرية التحليلية النفسية التي نحاول في هذا المقال تفحصها أيضا بشكل وجيز مع الأسف وهذا لضيق المساحة المتاحة لنا في ذلك.

وفي البداية فإن من الأهمية بما كان أن نشير إلى نقطة رئيسية ذكرها ذات الباحث عن براون ح.أ.س(Brown 1962) وهي أن مؤيدي فرويد ذاتهم يرون

أن فرويد هو الذي هدم المفهوم القديم للغريزة بوصفها استجابة آلية وغير متعلّمة من منبهات نوعية مثلها مثل غرائز الحيوانات الأخرى، وأحل محله مفهوم طاقة غير متميزة نسبيا، قادرة على تنوع غير محدود تقريبا من خلال الخبرة، كما أنهم يقولون أن فرويد لم يستخدم الكلمة الألمانية Instintet التي تعني بالعربية الغريزة، بل استعمل لفظة Trich وهي تعني الدافع أكثر مما تعني الغريزة، ومن صفات الدافع أنه يستطيع أن يغير موضوعه وهدفه تحت مؤثرات معينة صادرة عن البيئة لذا فإن فرويد قيل عنه أنه بنى سيكولوجية الغرائز.

الحقيقة أن نقد التحليل النفسي ليس بالأمر الجديد، فقد عانى طويلا من الريبة والسخرية "فألفريد أدلر" الذي كان عضوا أساسيا في رابطة تألفت سنة 1903 باسم "المائدة المستديرة" والتي كان أفرادها يجتمعون مع مساء كل أربعاء وهم أطباء فينا والمهتمين بالتحليل النفسي، انتهى بالانفصال عنها نهائيًا. ذكر ذلك في نفس المرجع وهو ما أكدته مجموعة من الباحثين المشاركين في كتاب أسموه الكتاب الأسود للتحليل النفسي (2005) ثم تبعه "كارل يونغ" الذي كان وبعد انعقاد المؤتمر الأول للتحليل النفسي سنة 1908 في سالسبورغ، الذي كانت تصدر عنه مجلة دولية اسمها التحليل النفسي، ومنذ سنة 1809 أصبح فرويد يصطحب تلميذا له من زوريخ هو كارل يونغ في سلسلة محاضرات في جامعة كلارك بالولايات المتحدة ، وكان يقدمه هكذا "إنه إبني الحبيب الذي وضعت فيه كل أمالي (فرويد1962) هذا الابن الحبيب انتهى بالإنفصال عن فرويد تماما. كذلك وحسب نفس المصدر هذا الإنسحاب الذي اعتبره فرويد ضربا من الثقافة اللا أخلاقي أو ضربا من المقاومة، خاصة حين تتالت

تراجعات وانفصالات كثير من الفرويديين آن ذاك، حيث أصبح الأمر طبيعي ومقبول. ولعل مرد ذلك أن ابنة فرويد نفسها وهي أنا فرويد التي ألحت على جوانب رأت أن فرويد الأب كان مقصرًا فيها (برون 1962) على العلوم ولأن المساحة المتاحة لنا في هذا المنتوج الهام والضخم ألا وهو مجلة "الباحث" لا تسمح بالتفصيل في الموضوع، نوجز فيما يلي الإنتقادات الموجهة للتحليل النفسي في صنفين أثنين رئيسيين هما على التوالي:

1 - الإنتقادات الموجهة إلى التحليل النفسي كنظرية علمية.

2 - الإنتقادات الموجهة إلى التحليل النفسي كطريقة علاجية.

1- التحليل النفسي كنظرية علمية:

1- يعتبر ايزك (Eysench J.h 1967) التحليل النفسي نوعًا من المضاربة الفكرية البعيدة كل البعد عن الصبغة العلمية وهو يبررُ كلامه هذا بما يلي:

- إن علم النفس الألماني يتميز إلى نوعين: سيكولوجية الفهم Verkl Chaude، وسيكولوجية التفسير Erklaireude، يقول أن التحليل النفسي ينتمي إلى الفئة الأولى: إنه يحاول أن يفهم أكثر مما يحاول أن يفسر، لذلك فهو لا علمي في جوهره وبالتالي يجب أن يحاكم على أساس الثقة والإيمان لا على أساس البرهان والتحقيق ويفسر أيزنك الشعبية الكبيرة التي يتمتع بها التحليل النفسي بين غير المختصين بأنها تعود إلى طبيعته اللاعلمية التي جعلته مفهوما مباشرًا وقابلا للتطبيق على مسائل فهم الآخرين في حين إن علم النفس من حيث هو

سيكولوجية تفسير لا يحاول فهم الآخرين بل تفسير سلوكهم بموجب منظومه من القوانين العامة.

- إن نظرية فرويد لا تأخذ شكل الفرضيات العلمية الحقيقية: فهي تتطلب التفسير لتصبح مفهومة. وهي لا تقبل البرهان على صحتها كما لا تقبل البرهان على خطئها:

إذا لم تتحقق تفسيرات الفرضيات التحليلية علميا يقول المحللون إن الاستنتاج يستند إلى تفسيرات خاطئة للفرضيات وإن تفسير آخر سيؤدي حتما إلى التطابق مع الوقائع التجريبية.

هي إذن فرضيات صامدة لا تبرهن على خطئها ولا على صحتها. وهذا ما يجعلها كما يقول أيزنك لا علمية بل عديمة الفائدة.

- إن التحليل النفسي يدعم صحة فرضياته بما يسميه نجاح ممارسته العيادية في علاج العصابات ويقوم بدراسة إحصائية لنسب الشفاء ينتهي منها إلى أن المقاربات التي أجراها لا تدل على وجود أية مزية وراء اتباع العلاج بالتحليل النفسي وأن النسب متساوية بين الشفاء بالعلاج التحليلي والعلاج بالطرق الأخرى.(المرجع نفسه)

2- التحليل النفسي كطريقة علاجية:

إن ما يقال في هذا الشأن يتصف عموما بما قيل عن التحليل النفسي كطريقة علمية. لكن الإضافة هي ان التحليل النفسي كطريقة علاجية إنما انتقد على أنه طريقة طويلة الأمد وباهضة التكلفة فهو يقتضي عادة بعض المئات من ساعات العمل كما أن تطبيقه محدود جدا بالنسبة للأعداد الكبيرة من الناس

الذين يحتاجون إلى دعم الطب النفسي. فمجلة "تايم" في عدد (شهر 04 لسنة 1969، ص46) تذكر أنه في نفس السنة قد بلغ عدد الأفراد المحللين 1300 محلل، وهو عدد صغير جدا إذا قيس بعدد الأمريكيين الذين يحتاجون إلى المساعدة المهنية والنفسية في اضطراباتهم الانفعالية.

فالتحليل النفسي كطريقة علاجية متهم بأنه باهض التكاليف، يستهلك الكثير من الوقت واصطفائي يقتصر على المرضى الذين يعانون من اضطرابات معتدلة يكون احتمال الاستفادة منها كبيرًا. ويضيف كل من ستؤوب وإلين برغين في نفس المرجع، وفي دراسة للمؤسسة القومية الأمريكية للصحة العقلية، يضيفان أن توجيه الجهود نحو إحداث تغيرات قليلة العمق وملحوظة رغم ذلك هو مفضل لدى المعالج االمعنى بالمقدار الكبير من المرض العقلي الذي يحتاج إلى علاج على توجيه الجهود نحو إحداث تغيرات واسعة لدى عدد صغير من أعضاء الطبقات الإجتماعية العليا.

لاحظ غلاء الجلسات العلاجية واختيار المرضى من الأغنياء للطريقة العلاجية الفرويدية وتذكر فقر فرويد وحبه لكسب الأموال كما ذكر الكثير من المهتمين بالأمر، حيث جعلوا هذا نقطة تحسب

على التحليل النفسي كما أن هذا النوع من النقد يراه الكثير وجيها ويتناول نقصا خطيرا في التحليل النفسي الفرويدي، فبالإضافة إلى ما ذكرنا فإنه أرستقراطي لإقتصاره على عدد قليل من الناس القادرين على دفع النفقات وكذلك فقط الذين تسمح لهم الطبيعة عملهم بتكريس الساعات الطويلة للجلسات التحليلية النفسانية،

ضف إلى أن العلاج الدوائي أو العلاج بالصدمة كثيرا ما يشاركان العلاج التحليلي النفسي.

في النهاية فإن الانتقادات التي وجهت للتحليل النفسي هي عديدة ومنطقية ضربت به كل الجوانب، حتى أن هناك من غاص قي تفاصيل حياة فرويد مؤسس المدرسة التحليلية وكثير التفاصيل الأخرى قد نعرضها لاحقا إن شاء الله.

لكن واحقاقا للحق نعترف في النهاية بأنه لولا هكذا اجتهادات سواءًا من المؤيدين أو المعارضين لما ت قدمت البحوث ولما تطورت النظريات وطرق البحث من خلالها في مجالات علم النفسخاصة.

قائمة المراجع:

المراجع باللغة العربية:

1- ادريس (س) وجبور (ع.أ) **المنهل** : قاموس فرنسي – عربي، دار العلم للملايين، بيروت 1983.

2- أدغاربيس **فكر فرويد** ، ترجمة جوزف عبد الله المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت الطبعة الأولى 1986.

3- أمل فائق، **التحليل النفسي بين العلم والفلسفة**، مكتبة الأنجلو المصرية، 2002.

4- فرويد (س)، **حياتي والتحليل النفسي**، الترجمة العربية، 1967.

5- حمصي (أ)، **التحليل النفسي بعد فرويد** هاري ستاك سولفيان، رسالة جامعية لنيل درجة ماجستير في التربية، جامعة دمشق، كلية التربية 1971-1972.

6- طلعت منصور وآخرون، **أسس علم النفس**، مكتبة الأنجلو المصرية، 1987.

المراجع باللغة الفرنسية:

1- Amado (G), de l'enfant à l'adulte la psychanalyse au regard de l'être P.U.F, Paris 1978.

2- Athanassion – Popesco (C), un étrange initiraire psychanalytique Oedipe Roi.

3- Bastide ® Sociologie et Psychanalyse P.U.F Paris 1950.

4- Sous la direction d'Assous(P.L) et Markoss Zafiropoulos Psychanalyse et Sciences Sociales Université et historicité éd Devecchi S.A Paris, 2006.

5- Grozon (c) Navelet Œdipe : les verités cliniques du Mythe aux Sources de la psychopathologie Collection « des travaux des jours » ères 2000.

6- Forest (F) Frend et la Science éléments d'épistemologie préface d'Elisabeth Roudinesco éd. Economica, Paris 2010.

7- Freud (A), l'enfant dans la psychanalyse Gallimard, Paris, 1970.

8- Garibal (G) Sigmund Freud l'homme, le médecin, le psychanalyste éd Devecchi S.A. Paris, 2004.